



يحتاج الشباب العربي اليوم إلى التعلق بالقيم لا بالرموز المزيّفة

استثناء الجنود الأمريكيين... إن الخلل ليس في المبدأ بقدر ما هو في الأوضاع الدولية التي تجعل منه مبدأ لا يحترم أو لا يطبق وفقا لمقاييس مختلفة تحددها المصالح. ثم إن المبدأ بدأ يبرز نتيجة للأوضاع الدولية الأخيرة التي عرفت ظهور مفاهيم جديدة لا يمكن قبولها أو تبريرها على الإطلاق ومنها "الحرب الوقائية". وظهر هذا المفهوم خلال السنتين الأخيرتين ليطبق في أفغانستان ومن بعدها العراق. وأعتبر هذا انزلاقا خطيرا صاحبه مفهوم لا يقل عنه خطورة، إن لم نقل أشد منه خطورة ويتمثل في "الحرب الاستباقية" التي يحكم من خلاله على النوايا دون توفر الأدلة، وهو ما يشبه إلى حد بعيد قطع يد السارق قبل أن يسرق... ويتطلب بروز مثل هذه المفاهيم والمبادئ الجديدة وقفة حازمة من الدول وهياكل المجتمع المدني بقطع النظر عن قوتها أو ضعفها أو وزنها على الساحة الدولية، ووعيا بخطورتها.

كوزبَات : ساكون متشائمة إلى أقصى حد وأقول فليكن، لقد وصلنا إلى حد تقنين هذه المبادئ وخلق الآليات لها... لكن هل الواقع في كل مرة يفلت من القوانين؟

إن القوانين تمثل إطارا ومرجعا وهي ضرورية لتنظيم العلاقات بين الدول... ولكن الواقع يحمل دائما انزلاقات وفيه خروج عن الأطر القانونية.

كوزبَات : كأنها باتت ضرورية لأن تخترق؟

لا. بل إن في غيابها ترسيخ لقانون الغاب.

كوزبَات : هل وصلنا إلى هذه المرحلة استنادا للأوضاع الراهنة؟

يصعب الإقرار بهذا في الوقت الحالي لأن الأوضاع أعقد من ذلك بكثير... ولناخذ مثال العراق، هل كانت الأحداث ستأخذ مثل هذا المنحى لو لم يكن النظام العراقي نظاما استبداديا...؟ هل كانت ستجري الأمور على تلك الشاكلة التي رأيناها لو حصن النظام نفسه بقاعدة شعبية؟ إن الواقع يفرض بذلك حقيقة أخرى وهي أن الأوضاع الداخلية تسهل بشكل كبير التدخل الخارجي.

■ "لا توجد ديمقراطية على الطريقة الأمريكية أو الغربية أو العربية، الديمقراطية قيمة، وهي أن نتعامل مع المواطن بصفته تلك لا باعتباره رعية.."

■ "الأوضاع الداخلية تسهل بشكل كبير التدخل الخارجي."

■ "ليست حقوق الإنسان قيما أمريكية بل إنها كونية."

■ "حقوق الإنسان أرقى من أي قوى تسعى إلى انتهاكها."

لا يمكن التطرق إلى موضوع استشرافي كالذي اختاره مركز "كوثر" لتقريره الثاني لتنمية المرأة العربية "الفتاة العربية المراهقة : الواقع والآفاق"، دون التطرق إلى الأوضاع الراهنة في المنطقة العربية أو إلى بعض من جوانبها... فمنذ أن شهد العالم "اختفاء" صدام حسين ومن حوله، والأصوات تتعالى بتساؤلات عديدة مست جوهر القيم وحقوق الإنسان والديمقراطية والعدالة والسلام. وذهب البعض، وخاصة الشباب منهم، إلى الطعن في القيم الإنسانية التي شهدت عقودا من النضال لتجديدها أو لمحاولة ترسيخها في عقلية المواطن والسلطة في المنطقة.

ومن أجل إلقاء المزيد من الضوء على الإشكاليات السابقة، التقينا الدكتور الطيب البكوش، رئيس المعهد العربي لحقوق الإنسان، والأستاذ بالجامعة التونسية، والأمين العام السابق للاتحاد العام التونسي للشغل، فكان هذا الحوار :

واخضاعه إلى إرادة فردية تطبقه حيثما أرادت أو حيثما توفرت المصلحة، ولا تعير له اهتماما إذا انعدمت المصالح الخاصة... علينا أن نسعى إلى تقنين مثل هذه المفاهيم والحقوق في إطار نظام دولي متكامل يعبر عن إرادة جماعية دولية لا عن إرادة فردية لدولة واحدة.

كوزبَات : لكننا في المقابل نرى حقوقا مقننة وقع اختراقها والعبث بها... هل سيحقق تقنين "حقوق جديدة" مثل "حق التدخل لأسباب إنسانية" نوعا من التوازن العالمي؟

لأنه لم يقنّن ولم توضع له آليات لتجسيده على أرض الواقع، يبقى هذا الحق في مستوى الحقوق "الغامضة" ولا يزال مبدأ عاما لم يخضع لا للتقنين ولا للتفعيل... ثم إن عدم التوازن الموجود في العالم واختلاله، يضعف هذه الآليات إن وجدت. ولعل أحسن مثال على ذلك هو القرار الأممي لإحداث المحكمة الجنائية الدولية. إذ شكّل إنشاؤها نقطة جد إيجابية، غير أن الدول العظمى فعلت كل ما في وسعها لعرقلة ظهورها. وعندما اضطرت إلى قبول المبدأ، اشترطت

كوزبَات : كيف لكم أن تترجموا "أزمة القيم" التي يعيشها العالم اليوم؟

أعتقد أنه ثمة أزمة قيم حقيقة في الظرف الراهن على الساحة الدولية عامة، والعربية خاصة. وتتجلى هذه الأزمة في بروز مفاهيم جديدة، بعضها يمكن أن يشكل كلمة حق يراد بها باطل. ومن أقدمها نسبيا، مفهوم ظهر قبل عقد من الزمن تقريبا والمتمثل في "حق التدخل لأسباب إنسانية". يمكن مبدئيا قبول هذا المفهوم وبالتالي الإقرار بهذا الحق وفهمه وحتى تبرير اللجوء إليه، إذ لا يعقل مثلا أن نترك مجتمعا يتعرض للإبادة نتيجة تصفية عرقية أو دينية دون التدخل. ولكن، في غياب تنظيم هذا الحق وتقنينه، يضرغ هذا المفهوم من شحنته الإنسانية بحيث يترك لتأويلات شخصية وإمكانيات استغلاله من أي طرف كان، وبالشكل الذي يريده ويتلاءم مع مصالحه الشخصية، وحسب فهمه الخاص لهذا الحق وللمفهوم الذي يسبغه عليه. وينتج عن ذلك استعمال "استبدادي" لـ "حق" من المفترض أن يستعمل لأسباب إنسانية بحتة،

تغتفر. ثم إن الحصار في حد ذاته جريمة في حق الإنسانية، بل إنه جريمة إنسانية بآثم معنى الكلمة.

كونزبات: أنا لا أتحدث عن الممارسة في حد ذاتها بل عن تواتر الصور أمام شعوب تشكل فيها فئة الشباب الأكثرية وتحمل فيها فئة المراهقين بشكل أخص نسبة مرتفعة... ماذا يمكن أن يخلف فيها هذا؟

يحتاج هذا الأمر إلى دراسة ميدانية لرصد تأثيرات هذه الهزات والمشاهد على الشباب أو المراهق العربي... لا أضلنا نحل المشكل بحجب تلك الصور... بل إن الأهم يبقى التفكير في الوضع العربي ككل، والأسباب التي أدت إلى ما هو عليه اليوم وما يترتب عن هذا الوضع في نفسية المواطن ككل وتشكيل شخصيته... وهذا موكول إلى النخبة الحاكمة والمفكرة وممثلي المجتمع المدني وجميع القوى الحية في نفس الوقت... فهي التي تحمل أمور الأمة وهمومها كما يقال.

كونزبات: وهل تعتقدون في إمكانية ذلك؟

هي ضرورة حيوية. فمن الضروري التقييم تقييم جميع التجارب التي أدت إلى الأوضاع الحالية. نبدأ التقييم على الأقل منذ سنة 1948 لأن ما يجري الآن في العراق لا يمكن عزله عما حدث سنة 1990 - 1991. وما جرى أيامها لا يمكن قراءته بمعزل عن أحداث 1967 و 1973... تراكمت الهزات وما نعيشه اليوم هو إفرازات الماضي وتواصل الحاضر بنفس الشاكلة والأخطاء.

كونزبات: ولكن الأصوات تعالت أيضا في التواريخ التي ذكرت داعية إلى ضرورة المراجعة؟

لا تنسى أن الأزمات كانت متتالية والمصائب أيضا، والأمور تعقدت إلى درجة أصبح من الصعب في ظلها التوقف للمراجعة سواء إن كان داخليا أو ضمن طبيعة العلاقات بين الدول العربية... هل ننسى مثلا أن ثلث الدول العربية على الأقل، ساهمت في الحرب ضد العراق؟ وربما هذا ما يعقد الأمور ويجعل العملية شبه مستحيلة إن لم نقل مستحيلة. إن لم نتمكن من الإصلاح الآن فعلى جيلنا الإعداد للأجيال القادمة.

كونزبات: ولكن أين ستكون الأجيال القادمة في خضم كل هذه التحولات؟

هذا ما سيفرضه التاريخ بطبيعته... لا يمكن لهذه الأوضاع أن تدوم إلى ما لا نهاية. كما يمكن أن تفرض الهزات أيضا. بالطبع، لا بد من الوصول إلى نقطة النهاية لتقع العودة من جديد. لا يمكن النزول إلى ما لا نهاية له.



"لا يمكن لهذه الأوضاع أن تدوم إلى ما لا نهاية"

كونزبات: عن أي نوع من القيم نتحدث: ديمقراطية الأقوى، سلم الأقوى، حقوق الإنسان على الطريقة الأمريكية؟ أم ماذا؟

لا توجد ديمقراطية على الطريقة الأمريكية أو الغربية أو العربية، الديمقراطية قيمة ومعناها أن نتعامل مع المواطن بصفته تلك لا باعتباره رعية. وأن يمثل نظام الحكم إرادة الأغلبية وأن يكون تعامل السلطة منبثقا عن إرادة الشعب... أما إذا تعاملنا مع المواطنين باعتبارهم رعايا وحوّلنا العلاقة بينهم وبين النظام إلى علاقة "ولاء" و"بيعة"، وهي مصطلحات سجلت عودتها بقوة على الساحة، فإننا سنضرب بالقيم عرض الحائط... ويزداد الأمر خطورة بتكريس وسائل الإعلام لهذه المفاهيم بتداولها.

كونزبات: على ذكر وسائل الإعلام، ماذا يمكن أن تخلف صور تواترت بشكل مكثف حول النهيار هيبة السلطة وحضارة شعوب بأسرها؟

أي هيبة لدولة فرت، وتركت رموزها وجعلت المركب يغرق؟ هل يبقى من الهيبة حتى الشيء القليل؟ أما الحضارة فشيء آخر، للحضارة مظاهر عديدة، بعضها يتجلى في الآثار الثقافية والبعض الآخر في الآثار الفكرية كما أنها تبرز في القيم... تتراكم على مر السنين وتتجلى في السلوك... والشعب العراقي شعب عريق ينتمي إلى حضارة ما بين النهرين التي تعد من أقدم حضارات العالم، ولا يختزل سلوك شعب عانى ويلات الحروب الواحدة تلو الأخرى وقمع النظام وحصارا اقتصاديا لمدة فاقت العشر سنوات في بعض مظاهر السلب والنهب التي يقوم بها بعض الجبهة من الأوباش... هذا إن لم تكن منظمة من الأطراف المعتدية لتطال من جملة ما تطاله مواقع أثرية ومتاحف وكنوز لا تقدر بثمن وهي جريمة لا

كونزبات: لكن، لو لم يكن السبب في بعض جوانبه مرتبطا بالأوضاع الداخلية لكان هناك أكثر من سبب للتدخل؟

كلّا، كان سيصبح التدخل أكثر صعوبة في ظل وجود شعب متلاحم ومتضامن مع قيادته لأنه ببساطة يصعب بشدة على أية قوة أن تقهر إرادة الشعب، وهذا ما حصل في فياتنام حيث خسرت أمريكا المعركة وفقدت أكثر من 150 ألفا من قواتها... ذلك أن فياتنام قيادة وشعبا، دافعت عن حق وأثبتت أنه لا مكان للشروع... أما في بلداننا العربية، فالشروع كثيرة، وهنا تكمن نقطة الضعف الأساسية. ولا أقول هذا لتبرير العدوان على العراق الذي اعتبره جريمة على المستويين الإنساني والقانوني. لكن الجريمة يسهل اقترافها كلما عرفت الأوضاع الداخلية اختلالا. فأغلبية الشعب العراقي من الشيعة بقيت محايدة واختار الأكراد التعاون مع المحتل، وبقيت الأقلية تقاتل. هذا هو الوضع الذي راهنت عليه الولايات المتحدة الأمريكية ورصدته، وتأكدت من عمق الأمراض الداخلية وبالتالي من الانتصار.

كونزبات: خلقت لنا الولايات المتحدة الأمريكية "رموزا" تبرز في حياة المواطن العربي تشده إليها بشكل أو بآخر لتتبخّر مخلفة وراءها صدمات وحالات من الذهول. إلى أي مدى يمكن أن يؤثر ذلك في تركيبة شخصية المواطن العربي خاصة الشباب منه؟

من السذاجة بمكان التعلق بالرموز المزيّفة والشعارات مجارة للعواطف... بالفعل توجد نرعة نحو استحسان الشعارات، وننسى أن البناء لا يتحقق بالشعارات خاصة الزائفة منها... يحتاج الشباب العربي اليوم إلى التعلق بالقيم لا بالرموز المزيّفة.

كوزبّات : قبل أن ننطلق في حوارنا هذا تطرّقتم إلى ظاهرة انتحار بعض الشباب العراقيين. أضف إلى ذلك نتائج دراسات أجريت قبل انطلاق الحرب بفترة قصيرة، أكدت عدم تمسك أطفال العراق بالحياة في أبسط تجلياتها... كيف يمكن لمثل هذا الجيل أن يحقق النقلة المنشودة؟

ليست قضية جيل واحد بل أجيال. كل هذه الأحداث تبقى في الذاكرة الجماعية ولا بد أن تستوعبه الأجيال القادمة وتتخذ منطلقا إلى واقع آخر جديد. التاريخ كله حافل بالهزات والصدمات وخيبات الأمل والتاريخ لا يختزل في سنوات قليلة. ولك في الثورة الفرنسية أحسن دليل لأنها لم تستقر على مستوى جيل واحد وكذلك الديمقراطية.

كوزبّات : ما هي الدروس التي يمكن أن يستخلصها الجيل الحالي من الأحداث؟

ربما تتمثل أهمها في عدم الانسياق وراء الشعارات الزائفة وعدم التعلق برموز واهية واعتبار الوطن قيمة تستحق أن ندافع عنها ونضحي من أجلها... وأن الشعوب لا تقبل الهزيمة تحت أي ضغط كان وأي منطق كان... ولا بد أن تفرز كل هذه الأحداث قوى تسعى إلى خلق نوع من التوازن.

كوزبّات : لكن مثل هذه القوى تفرزها حركات مجتمع مدني في مستوى الطموحات، إلا أن الملاحظ اليوم أن ما يجري على الساحة الدولية انعكس أيضا على مستوى المجتمع المدني؟

أنت تطرحين بالفعل موضوعا من الأهمية بمكان، وهو أيضا من التعقيد بمكان إن صح التعبير... وسأسوق إليك حادثة عشتها منذ أيام وأنا أحاضر بكلية الآداب بتونس حول الأزمة الحالية. وإذ بطالب يأخذ الكلمة ليطالب بضرورة فضح "حقوق الإنسان هذه والديمقراطية"... وفي ذلك خلط بين فضح الممارسات وفضح القيم... فما معنى أن

نفضح حقوق الإنسان؟ ليست حقوق الإنسان قيما أمريكية بل إنها كونية. وفيما نعيشه اليوم أكبر دليل على أن حقوق الإنسان أرقى من أي قوى تسعى إلى

انتهاكها. وفي الإقرار بزعامة أمريكا في هذا الشأن منزلق خطير. فإذا التصقت الديمقراطية وحقوق الإنسان بالحضارة الغربية فلأن هذه الأخيرة ورثت حضارات أخرى، ولا يعني انتهاك دولة عظمى لمثل هذه القيم أن نضرب بالقيم ذاتها عرض الحائط... فالقيم قابلة للانتكاس والتراجع في أي وقت من الأوقات لذلك يجب أن تتوارث الأجيال مهمة الدفاع عنها ونشر ثقافتها.

كوزبّات : ألا ترى أنها أفرغت من محتواها، لتعكس عدم جدواها؟

إن ما يفرغ هذه المصطلحات من معناها ومحتواها هو استعمالها في غير محلها واستعمالها لأهداف مخالفة لمحتواها الحقيقي. وتبرز من هنا ضرورة تحديد المفاهيم حتى لا يعد المدافع عن وطنه مثالا إرهابيا في غياب التعريف الدقيق للإرهاب.

كوزبّات : كيف يمكن أن نحمي الشباب من الانزلاق؟

لهذا الجيل مسؤولية وعليه تحملها. ولا ننسى كذلك مسؤولية ما يسمى "بالنخبة المفكرة" التي من المفترض أن تعمل على توضيح الرؤى وعليها أن تخلف وراءها شيئا يقتدى به ويستفاد منه.

كوزبّات : وهل لا يزال ممكنا حسب رأيكم التعويل على هذه النخبة؟

أعرف أنك تشيرين إلى إفلاسها لكنني أميل إلى نوع من النسبية في الحكم على الأشياء... صحيح أن البعض من النخبة العربية أصابها الانتهازية وأن البعض منهم قد تم قمعها واستقال البعض الآخر، ولكن بعضها الآخر لا يزال موجودا، يناضل رغم ذلك. ويبقى التأسيس إلى أجيال قادمة هو التحدي الأكبر على مستوى منطقتنا العربية... أن ننظر إلى واقعنا نظرة نقدية، كأن نقر بأبسط الحقائق التي نعيشها. فإن مجتمعا ينظر إلى المرأة نظرة دونية لا يمكن له أن يتقدم. ما زالت مجتمعاتنا العربية تعيش عقدة المرأة. وما لم تحل هذه العقدة، لا يمكن لنا الحديث عن رقي مجتمعاتنا وتقدمها.

حاورته :
اعتدال المجبري

